

الحرب خدعة

فتح السودان وواقعة ام درمان

لما عاد سردار الجيش المصري فائزاً منصوراً من واقعة ام درمان اختلف المقدمون في قيمة النصر الذي اوتيه والاكثرين على تعظيمه وحبائمه من اجدد الاعمال التي عملها اعظم القواد في كل زمان ومكان ولذلك احتفل به قومه احتفالاً نادراً اثنال وبعضهم حقروا عمله وعزا نجاحه الى حسن اسلحته وجهالة خصومه فينون الحرب . لكن المؤرخ لا يبي احكامه على عواطف الناس وما يرويه تجار الاخبار بل يتشد الحقيقة ضالته ويبدل الجهد في تجريدتها من غواشي الاوهام حتى اذا ظهر بها عرضها على السبع العتلاء

وقد اطلعتنا على مقالة للجنرال فردريك موريس في الجزء الاخير من مجلة القرن التاسع عشر الانكليزية فرأينا فيها تفصيلاً لم نره في غيرها من كل ما وقتنا عليه في هذا الموضوع وكشف لأمور لا بد من نظيرها في تاريخ الحرب السودانية واتفق بعد ان اتمنا قراءتها ان زارتنا رجل مشهور اقام في ام درمان سنين عديدة فأثناء عن اذا كان قد سمع عن هذه المقالة فرأيناه خالي الذهن منها ثم سأناه عن اهم ما فيها من الحقائق فوجدناه يرى رأي الكتاب ويعتقد اعتقاداً وهاك خلاصة المقالة وما سمعناه منه مشتتاً لما . وعرضنا من ذلك اثبات حقيقة تاريخية لا النظر اليها من وجهها السياسي والاجتماعي . قال الجنرال موريس ما خلاصته

لم يكن الملك هنري الخامس ليلة واقعة اجكور^(١) ولا القائد ولنتون قبيل واقعة سلامشكا^(٢) في حالة ادعى الى الاضطراب من الخالة التي كان فيها اللورد كيشتر ليلة واقعة ام درمان . وقد وقفت على آراء كل الذين كان لهم شأن في تلك الواقعة واحداً واحداً فرأيتهم متفقين على انه لو يتهم الدراويش اي لو هجوموا على معسكرهم ليلاً لكان دخولهم اليهم ممكناً . هذا ما اتفقوا عليه كلهم مع اني سألت كلاً منهم على حدة واكتفي رأيتهم مختلفين قليلاً في درجة هذا الامكان فان الليلة كانت قراءه ولا خوف من احتجاب القمر بانسيوم في تلك البلاد فيجمن ان النار اندائمة التي صدتهم عن المعسكر في النهار كانت تصدم في الليل ايضاً . ثم رأيتهم متفقين

(١) بلدة فرنسية حدثت فيها واقعة شهيرة سنة ١٤١٥ بين الانكليز والفرنسيين فكان النصر فيها للانكليز

(٢) مدينة في اسبانيا على مئة وعشرة اميال من مدريد حدثت في صباحها واقعة شهيرة بين ولنتون القائد

الانكليزي ومارمون القائد الفرنسي سنة ١٨١٢ . وكان النصر فيها للانكليز

على انه ويصح الدراويش سيك دخول المعسكر فكان التور في لاجهم كانوا ضمن الجنود
الانكليزية والمصرية صعدا على الافل ولا يوقهم احد في استعمال السلاح لا يرض واستعمال
البنادق في حرب الليل لا يقيد بن يضر

وقد قال لي واحد من الذين ناموا قليلاً تلك الليلة "قل" من يعلم ما يقع بك اذا دخل
العدو معرك ليلاً فان الصديق يقتل الصديق حينئذ وتصدر الاوامر من القواد متناقضة
ويزيد نوح الابواق في اضطراب الجنود والقباز في حلك الظلام . ولكننا نجونا من ذلك كله
بانظار العدو نور النهار ^(١)

ونكن لماذا انظر الدراويش الى الصباح ولم يجمعوا ليلاً فانهم كانوا ضمن الف من الابطال
المحكين المستسلمين وكانوا نازلين على ثلاثة اميال فقط من المعسكر الانكليزي المصري وراهم
السردار كذلك صباح اليوم الاول من سبتمبر والسبل يوج بهي كالبحر الزاخر ورماحهم واعلامهم
تد الفضاء ولا يكن المعسكر الانكليزي المصري قد انتظم ولكنه انتظم مريعاً وبوهج عايد
الدراويش نهائياً بعد انتظامه ما كان من هجومهم خطر ولكنهم تربصوا في اماكنهم كان غرضهم
الهجوم في الليل لا في النهار على جاري عادة اهل كردوفان وهنا انظر كل الخطر

وقد ثبت بعد ذلك ان الخليفة خرج من ام درمان وغرضه الهجوم ليلاً لا نهائياً وهذا
الذي كان السردار يفتاه وهذا الذي بذل جهده في منعه . فاولاً وصل الى اعنم ام درمان
بين الوقت المحدد لوصوله بسة ايام فان اليوم المحدد كان السابع من سبتمبر وكان الخليفة يعلم
ذلك لان عيونهم وارصاده كانوا مبشرين في البلاد كلها الا ان السردار غير هذا الجهاد سراً
وبذل من الجهد ما يفوق التصور حتى جعل الحملة تصل في اليوم الاول من سبتمبر لكي يكون
هناك والتحر بدر (١٤ ربيع الثاني) حتى اذا بيته الدراويش لا يسهل دخولهم معركه ولا
يقع الاضطراب في جيوشه . لكن البدر ينسب قبل الفجر وحينئذ تشد الغلظة قبل يشهر
الدراويش تلك الفرصة ويهجمون في حلك الظلام . قال لي واحد من الذين حضرو واقعة
ام درمان وابلوا فيها بلاء حسناً " انه لو فعل الدراويش ذلك وهموا علينا قبل الفجر يمتل
البسالة التي هموا بها في النهار لتزق شملنا تمزيقاً ورمينا انفسنا في النيل . " وقد فرخ السردار
وسعه في التأهب لذلك حتى لا يرخد على غرة ولكن في جملة الفائد المختك الحكيم ونسطة

(١) وقد سألنا الرجل اشارة الى ما قيلك او هم الدراويش ليلاً على الجنود الانكليزية
والمصرية فقال لو فعلنا ذلك ما رجح احد من الجنود الانكليزية والمصرية لتدركم بما حدث بل لذهبنا كهد
فدلاً وغرقاً

أخرى لا أدرك أنني وهي الخدعة . فإذا استطاع أن يخدع خصمه ليعتقد أنه فاسد غير ماهر فاصد فقد استطاع أن يخفي من الشرك ورداً . وهذا ما فعله السردار فخبى رجاله ودارت الدائرة على الدراويش فإنه اتفق بعض السردانيين الذين يترددون بين المعسكرين أنه عازم على مهاجمة الخليفة تلك الليلة فسر الخليفة بهذا الخبر وانتشر بالنصر القريب وأخر هجومه إلى أن يهجم السردار عليه أولاً ويثني بنفسه في مخالفته . والوقت الاصلح لهجوم قبيل التجر وانتظر الليل كله ولما رأى أن السردار احتجم عن الهجوم فقد صبره فجهيم حور وكان من أمره ما كان (١) (كما فسكاه في غير هذا المكان)

ثم إن الخليفة كان يقصد الايقاع بجنود السردار وذبحهم كلهم عن بكرة أبيهم وذبح كل الاوربيين الذين في ام درمان فيستخلص من أعدائه دفعة واحدة (٢) فجاء الامر على ضد ما قصد وتقل الدراويش في حومة الوغى ولكنهم لم يموتوا موت الجبناء بل موت الايطال وقد كانوا من اطفي الجيارين الذين عاشوا في الارض صاداً ولم يكن غرضهم من ثورتهم وعصيانهم سوى الرجوع الى تجارة الرقيق بكل فئاتها وهي صناعة البقارة بنوع خاص وهم الذين نصروا الخليفة وثبوا معه الى النهاية وهم الذين حوّلوا غرض المهدي الديني الى غرض تجاري شهواني ولا يمكن ان تجو بلاد السودان من شرهم الا باستئصالهم منها . وقد توالى صراخ التباثل التي جاروا عليها وتظلموا سنة بعد سنة . فلم يشتموا الا لانهم كانوا مصريين على التثنت بنا فانهم كانوا مرتقين انهم اذا دخلوا الزريبة تم الفوز ثم ندم امرنا في استعمال السلاح . بالثمة فائقة ولكنها مثل سائة

(١) سأله أيضاً ماذا لم يهجم الخليفة على السردار ليلاً فقال انا من جهتي ناقول لكم اني كنت جدي في خداعه فان الخليفة كنت يكرمي ويخاطني في وقت واحد لاني كنت دائماً أتهدده املأ ان يندد عيشة مني ويأمر بخلي فيرجع من الحياة المرة التي كنت فيها لكنا لم نعمل لانه كان يعتقد ان حسن الراي وكاذا اراد تخزي لروايب الزمن فاتاني بعض حاشيدوه في مرة سبتمبر وألوي عما اظنه من قصد السردار فطلعت ابهر آت من فيلو ولو لم به تعرفوا بذلك وقلت لم الله لا بد من ان يبيحكم ليلاً لان رجاله اقل من رجالكم فوقع بعض قتل ذلك وانا اقصد خداعهم لاني كنت اعنى من تبيهم ثم يجرد السردار والظاهر انهم صدقوا قولي . ولما اخبرناه بما قرأناه من كلام الجنرال موريس ديمس وقال اذا قد فعلت ما ارادة السردار عن غير علم

(٢) سأله أيضاً ما ظنك في الخطة هل كان وانما من قصد بالفوز على الجنود المصرية والانكليزية فقال هذا الذي اعتقدته وهذا الذي كنا نعتقده كلها في ام درمان لان جوده من اسل جنود الارض وقد خرجوا الى الحرب مستنلن خرجوا ليشلوا او يفتلوا وقد اتفق الآن انهم ما زالوا في حومة الوغى مستنلن ولو فازوا بجنود صفوف السردار لكان الفوز لهم ولو في النهار بل لو لا مكروئله وهارتو لكان الفوز للدراويش على ما يظهر لي

الاسد الضاري وليس فيهم صفة محمودة غيرها وعندى أنت الدنيا بعد انقراضها اصطلح منها قبله لا سيما وانهم اختاروا الرحيل عنها من تلقاء انفسهم . انه لما قُتِل جينات الجيار بالحجر لم يكن له وصول الى داود ولكن ذلك لا يجعلنا نشقى عليه ونلزم داود على قتله . ولم ينسب احد غير ظفرو لقتله وقد كان سمرًا على استعماله اكثر مما كانت جنوده متمونة على استعمال ادوات الحرب التي استعملتها

هذا من حيث الواقعة نفسها اما من حيث هذه الحرب فان كثيرين منا كانوا في قلق دائم لئلا يثير احد على الخليفة ان يتقدم بمجنوده الحسين الفاء وبموقع بالجند المصرية قبل ان يجتهدتها الجنود الانكليزية لاسيا وانها كانت متفرقة في اماكن كثيرة من دمشق الى كسلا قبلما شئت سكة الحديد . الا ان خوفنا لم يكن في محله لان حكم الخليفة كان قد جعل تلك البلاد الخصبية فقرا بقلما بلقما ثم بعد استطاع الزحف بمجنوده كلها مسافة طويلة لانه لا يقدر ان يجدها الميرة الكافية ولا عنده جمال كافية لتفها مسافة طويلة . ولم يكن يأمن على نفسه اذا ابد عن عشه طويلا ولا كانت رقاعة عيشه يبيع له البعد وهو على ما يعلم من كثرة النساء والسراري ولم يكن يأمن احد على جانب كبير من جيوشه ولذلك تولى قيادة جيشه بنفسه . وقد كان السردار يعلم هذا كله ويرقبه بالدقة الدائمة ويحني مقاصده على قدر طاقتة لكي لا تبلغ الخليفة . وقد فعل ما فعل وهو مكتوف اليدين بالقيود المالية التي قيدت بها الحكومة المصرية ويضاف الى ذلك اهتمامه لكي لا تصل الجنود الانكليزية قبل الوقت اللازم لوصولها لئلا تزيد النفقات وتسام النصير فتضعف عزائمها وهزائم الجيش المصري ايضا . ولقد كانت المروية عظيمة جدا على السردار وعلى اللورد كروس لكي يوفقا بين كل هذه المطالب فوقها بينها بالدقة التامة كما ثبت من نتائجها . والفضل في جانب كبير من نجاحها لما في قلم المغايرات من تمام الكفاية ولهاارة الفرسان ولتمكن السردار من اخفاء مقاصده . ولما رأى الخليفة ان السردار يستمد على الهجوم لا على الدفاع وباعت خصمة مباغثة صدق ما قيل له من انه عازم على الهجوم عليه ايضا امام ام درمان قبل فجر اليوم الثاني من سبتمبر فانساع من يدو فرصة الهجوم لئلا

ومن اعظم اعمال السردار المالية التي ترقف عليها نجاح هذه الحرب مد سكة الحديد في قلب الصحراء حيث تكون بآمن من غارات الدراويش فانها قصرت المسافة من حنفا الى بربر . وجعلتها نصف ما هي وسهلت نقل الميرة والذخائر وقصرت مدة اقامة النجدة الانكليزية في القطر المصري فاتصد جانب كبير من نفقاتها ولعل المنتصد يساوي نفقات اثناء السكة الحديدية ويصعب على الجنود الانكليزية ان النصيب الاوفر من حومة الوضى وقع للواء الكولونل

مكدونلدهم ولا هم ولكن ذلك يعود بالفقر علينا . وأكثر هذا البراءة من السودانيين وانفرد
بينهم وبين المصريين الذين حاربوا معهم كفتنا انهم في ان السودانيين حاربوا عن
طيب نفس واما المصريون فربما كانوا يفضلون ان لا يحاربوا ولكن اذا تذكرنا ان جنود حرك
مضوا الى القتال منذ ست عشرة سنة وهم يكون وان باكر باشا وهو من افضل قوادنا كلهم لم
يسطع ان يجعل ثلاثة آلاف منهم يقفون امام ١٢٠٠ من العرب فعمتا مفاد ما فعلته جنود
مكدونلدهم فعمتا ان امة باسمها هبت من مياتها وطرحت ما البتة اياه قرون الاستعباد الماضية
ولذلك نفخر بما فعله لواء مكدونلدهم لان نفرة عائد اليها
ثم استورد الى ذكر الاسلحة التي استعملت في واقعة ام درمان وقال انها قد غيرت اساليب
الحرب عما كانت عليه منذ عشرين او ثلاثين عاماً

الجرائم والاهام

لا مشاحة في ان امران حديث في اوربا وان تعاليتها لم يكسروا قيود الثقيل ولم ينجروا من
ربقة الالهام الا منذ عهد حديث . وهم على ما بلغوه الآن من الارتقاء علماً وصناعة وتجارة
لا يزال بعضهم غافلاً في بحار الجهل مكتنفاً بالاهام واخرافات التي يعصمك منها عامتنا فضلاً
عن خاصتنا وقد رأينا لذلك امثلة كثيرة في مقالة مسهبة للاستاذ افانس فنقلنا بعضها عنه
من ذلك قتل الاطفال احتقاراً بانهم من اولاد الجنان وهو عادة شائعة عند العامة في
اوربا كلها فاذا ولد لبعضهم ولد سقيم قالوا ان جنية اخذت الطفل السليم ووضعت بدلاً منه
طفلاً السقيم فيضربون الطفل بقضبان المرص الى ان تشفق امه عليه وترجعه والا اكثروا
فسره او رموه على مزبلة او سلقوه بالماء الغالي حتى يموت . وقد حدث شيء من ذلك في مدينة
نيويورك نفسها سنة ١٨٧٢ فان رجلاً ارلندياً وزوجته قتلوا طفلاً حاسين انه طفل
جنية بدلت به طفلها الحقيقي . وامثلة ذلك كثيرة في ارلندا حتى ان الابوين قد يقتلان
ولداً بالتمام من اولادها اعتقاداً انه من اولاد الجنان . ومنذ مدة وجيزة مرض ولد ارلندي
عمره اربع سنوات وسقم جسمه ولم ينجح فيه علاج فقال ابواه انه ليس ابنيها بل ابن جنية
بدلت ابنيها به فغلبا ماء ووضعاه فيه فجعل يبكي ويستغيث ولا مغيث الى ان قضى نحبه
ونجاة الموت من عذاب النار
وذكر الكاتب وفهم منهزت انه رأى رجلاً يعذب ابنته في قرية غربي بروسيا ولا سألته